العودة إلى متوشالح (لبرنارد شو)

بقلم الدكتور جرجس الرشيدى

ان الكمية الضخمة من الكتابة فى شتى الموضوعات ومختلف الأشكال الفنية قد سببت ما رمى به النقاد برنارد شو من تناقض وما قاسوه من بلبلة فى فهم ما يعنيه . فحين يكتب شو فى الاقتصاد مثلا ، يكتب بعقلية علمية تجعلها درايته بالاقتصاد السياسى قادرة على ابراز خلفية ومزايا التحول الاشتراكى الذى كان ينادى به . ولعل عضويته فى الجمعية الفابية واحتكاكه بعتاة الاقتصاديين من أمثال سيدنى وب وزوجته بياتريس هو الذى وفر له المعلومات التى ضمنها مقالاته . ويعترف شو أنه لم يكن الا داعية للجمعية فيقول فى احدى سيره الذاتية : « وحين كنت أبدو مبتكرا وعبقريا ، لم أكن فى الواقع الا ناسخا وداعية له قدرة أدبية ودرامية غير عادية نمتها الممارسة المتصلة . لقد أطاح زملائى بكل ما فى ذهنى من تفاهات وجهل وريفية سوقية (١).

وحين يكتب شو مقدمات مسرحياته ، يعتمد على ماحباه الله من ذهن متوقد ومنطق سليم وجرأة وواقعية فى عرض آرائه التى قد تذهل قراءه . وحين يكتب مسرحياته يطرح أفكاره جانبا ويخضع لواجبه الدرامى فى أن يعبر شخوصه عن آرائهم حسب مقومات شخصياتهم وظروفهم والموقف الذى يعبرون فيه عن أنفسهم .

ولعل هذه التناقضات مع وفرة انتاج شو هى ماجعل بعض نقاده ، خاصة الأولين منهم ، يضلون فى متاهات فى تفسير أعماله وابراز ما يرمى اليه . ولكن الدراسة الشاملة لأعمال شو فى المجالات المختلفة والاقتناع بأن شو الكاتب المسرحى يختلف عن شو كاتب المقالات والنبذات والمقدمات تلقى أضواء سليمة على عمله الدرامى الذى هو فى مسرحياته الجيدة تعبير عن آراء شخصياته ومزاجهم أكثر منه تعبير عن آرائه ومزاجه هو . وبالطبع تلون آراؤه ومزاجه الشخصى آراء ومزاج شخوصه الذين ما هم الا أجزاء متباينة منه حتى لو كانت لهم آراء تختلف عن آرائه .

وكأى كاتب آخر ، تؤثر حياة شو الخاصة ونشأته فى آرائه واتجاهاته ومزاجه . لذلك دأب

(١) ست عشرة صورة ذاتية .

شو على كتابة عدد من السير الذاتية عدا ما أملاه على «أرشيبالد هندرسن» ، كاتب سيرته الأمريكى من أقاصيص وخبرات من حياته • وليست هذه مجرد أقاصيص تسرد بل يجد دارسها أن لها أثرا قويا على شخصية شو وعقائده واتجاهاته التى عبر عنها فى أعماله الأدبية •

سيرته :

ولد جورج برنارد شو فى دبلن فى٢٦ يولية سنة ١٨٥٦ ، وعائلة شو ، كما يحدثنا هو ، عائلة عريقة تمتد جذورها الى أليفر كرومويل والى ماكدف ، الشخصية التى صورها شكسبير فى مسرحية « ماكبث » • وحتى اذا كان هذا محض افتراء منه ، فان الثابت أن أجداد شو كانوا يمتلكون اراضى شاسعة فى ايرلنده • وان فى العائلة سبطا من الاشراف يتوارثون لقب «ايرل» • ولكن لأن القانون البريطانى يعطى الارث للابن الأكبر فقط ، لم يكن حظ والد شو أو جده من المال كبيرا • وكان لهذا الموقف أثر عميق فى نفس شو ؛ اذ أن العائلات العريقة التى لم يكن لديها مال كاف لتحيا فى مستوى يتناسب مع متطلبات الحياة الأرستقراطية كانت فى رأيه فى مأزق لاضطرارها للتظاهر بالتمسك بمقومات الحياة الراقية • يقول شو فى مقدمة أولى رواياته « قبل النضج » [1] •

« اذا أردت أن تعرف ماهو الفقر الحقيقى سل الابن الأصغر للابن الأصغر • لتفهم مصيبته • عليك أن تبدأ عند القمة دون أن يكون لك دخل من هم عند القمة ، وألعن الحظ الذى لم يجعلك تبدأ عند القاع •• انى أغنى أناشيد طبقتى ، الطبقة الراقية المشعثة ، الأقرباء الفقراء ، السادة الذين ليسوا بسادة » •

ويحكى لنا شو أمثلة لتعلق عائلته بأذيال الرقى • فكان مثلا يفرض عليه أن يذهب الى الكنيسة فى أيام الآحاد • وكان يمنع فى طفولته من اللعب مع أبناء تجار القطاعى الذين يعتبرون دون عائلة طبقة • ولما اضطر والده للعمل ، اشتغل بتجارة الجملة فى الحبوب رغم أن طبيعته لم تكن تساعده على النجاح فى هذا المضمار • كانت النتيجة الحتمية افلاسه ، ثم ادمانه الخمر مما أدى الى هجر زوجه له وذهابها الى لندن مع مدرسها فى الموسيقى والغناء يتبعها ابنتها ثم ابنها جورج • ثم قاسى شو أيضا من التزمت الدينى فى أيرلندة والعداء التقليدى بين البروتستانت الذين يمثلون الطبقة الأكثر غنى والكاثوليك من عامة الشعب • لذلك أرسل الى مدارس البروتستانت التى كانت تعامل تلاميذها معاملة صارمة جعلت شو يكره الدراسة التقليدية ويدأب على تثقيف نفسه بنفسه•

شو اذن برجوازى بحكم نشأته ، تتأصل فيه صفات وعادات البرجوازيين ، وفى نفس الوقت ثائر على البرجوازية وهب حياته للسخرية منها وتحطيم أصنامها وطواطمها • لذلك لم يكن غريبا أن يعتنق الاشتراكية فور ذهابه الى لندن سنة ١٨٧٦ وله من العمر عشرون عاما لأنها تحطم الفوارق الطبقية وتزيل آثار قانون الوراثة الجائر• ولكن الاشتراكية التى اعتنقها وهى الاشتراكية الفابية اشتراكية بطيئة النمو ، لا تهدم القديم

(١) Immaturity

دفعة واحدة وانما تأخذ مكانه تدريجيا وبالطرق المشروعة • وقبل أن يعتنق الاشتراكية الفابية دفعته ثورته على النظام الرأسمالى وما يكتنفه من افتقار الى الأخلاقيات الى أن يعتنق شيوعية متطرفة أول الأمر وأن ينخرط مع وليم موريس وهايندمان فى صفوف الاتحاد الاشتراكى الديموقراطى وكان ينظم المظاهرات ويعد لانقلاب يسارى • وبعد قراءته لكتاب « رأس المال » لكارل ماركس أعجب بما فيه من آراء لأنها تحقق ما يبتغيه من قضاء على الطبقات وهدم لأخلاقيات الطبقة البرجوازية التى قاسى منها فى حياته الأولى • ولكن الخوف من الطفرة المتأصل فى نفسه جعله يشن حملة شديدة على ماركس لمناداته بحتمية الصراع الطبقى وانتصار طبقة العمال وانفرادها بالحكم • وكان شو بحكم نشأته فى الطبقة المتوسطة وبحكم احتكاكه بالعمال الذين كانوا ينغمسون فى الشراب والعنف واساءة معاملة زوجاتهم ، يرى أن انحطاطهم لا يؤهلهم للاشتراك فى حكم البلاد • لذلك لم يقر شو مبدأ الديموقراطية الذى يقضى بأن يحكم الناس أنفسهم بأنفسهم •

ومن الملاحظ أن شو لم يعتنق الاشتراكية لذاتها بل لأنه اعتبرها الدواء الناجع لكل أمراض المجتمع المادية والاجتماعية والخلقية • وترتبط هذه الفكرة فى ذهنه بنظرية التطور البشرى ودفعة الحياة[1] التى تدفع بالانسانية قدما نحو حياة أفضل • ففى رأيه أن دفعة الحياة التى تحاول باستمرار أن تعى ذاتها حتى تتطور نحو الكمال خلقت مخلوقات كثيرة أثبتت الواحدة تلو الأخرى أنها غير جديرة بتطويرها • وأخيرا خلقت الانسان الذى ساعدها كثيرا بذكائه وتفوقه على سائر المخلوقات • ولكن حتى الانسان لم يثبت أنه المخلوق الأمثل الذى يحقق لدفعة الحياة أغراضها ، فيجب اذن أن يتطور حتى يصل الى الانسان الأمثل أو السوبرمان • يقول شو فى مقدمته « لقيصر وكليوباترة » :

« واذا حسبنا الأجيال من السادة الشيوخ التقدميين منذ أفلاطون مثلا وأضفنا التحسينات الضخمة المتتالية التى رآها كل منهم ، لصدمتنا الحقيقة التى لا تعليل لها وهى أن الدنيا بدلا من أن تحسن فى السبع والستين جيلا حتى تتغير تماما ، نجدها على العموم فى مظهر أقل كرامة فى « عدو المجتمع » لابسن عما هى عليه فى «الجمهورية» لأفلاطون – وفى الحقيقة ان الفترة التى يعطيها التاريخ قصيرة جداً بحيث لاتسمح بأى تطور محسوس بالمعنى العام للجنس البشرى • ان فكرة انه حدث أى تطور منذ عهد قيصر (أقل من عشرين قرنا) فكرة سخيفة لاتستحق المناقشة)•

ويقول قيصر لكليوباترة حين حرضت على قتل بوثيوس ، رئيس وزرائها المصرى ، انتقاما منه لاهانتها :

« لقد قتلت زعيمهم : فحق عليهم أن يقتلوك ••• وباسم هذا الحق (يضغط على هذه الكلمة بسخرية) ألن أقتلهم لقتلهم ملكتهم ، ثم أقتل بدورى بيد مواطنيهم كغاز لأرض أجدادهم ؟ وهل تستطيع روما الا أن تقتل هؤلاء القتلة أيضا لتبين للعالم كيف تنتقم لأبنائها وشرفها ؟ وهكذا حتى نهاية التاريخ

---

(١) Life Force

لا يجلب القتل الا القتل ، ودائما باسم الحق والشرف والسلام ، حتى تضجر الآلهة من رائحة الدم وتخلق جنسا آخر أكثر قدرة على الفهم » .

وهكذا يعبر شو عن رؤيته للجنس البشرى. فهو كقيصر يحاول أن يفتح عيون الناس الى مايتردون فيه من آثام ، يحاول أن يجعلهم يحكمون عقولهم فى أحكامهم على السلوك بدلا من أن يعتمدوا على المثل العليا الجاهزة التى فى كثير من الأحيان لا توافق طبائعهم ، وطبائعهم ، فى رأيه ، من صنع دفعة الحياة المقدسة .

وفكرة أن الناس يرتكبون الآثام « باسم الحق والشرف والسلام » جعلته يكفر بالمثل التى درج الناس على اعتناقها . وذهب فى ذلك الى حد قوله ان التقدم البشرى ما هو الا تحطيم للمثل العليا السائدة كى يعتنق الناس مثلا أكثر واقعية وملاءمة لطبائعهم ، وأن المسرحية الناجحة لا بد أن تكشف عدم جدوى بعض ما يعتنقه الناس من مثل عليا ، اجتماعية كانت أم أخلاقية . ويجدر بنا أن نشير هنا الى أن نقد شو للكاتب النرويجى الكبير هنريك ابسن واعجابه الشديد به مبنى أساسا على أن ابسن حطم المأثور من المثل العليا فى مسرحه ولعل شو قد تأثر بقول دكتور رانج أحد شخوص ابسن فى مسرحية « البطلة البرية » .

قد تصبح الحياة محتملة اذا تخلصنا من هؤلاء الملاعين الذين ينغصون علينا حياتنا بتمسكهم بالمثل العليا » .

وليس هنا المجال لناقشة ما ذهب اليه شو فى تفسيره لابسن ، ولكن من الواضح أن شو ربط بين الوضعية الأخلاقية والتخلص من المثل العليا على أساس أن الانسان يكون على خلق قويم اذا سار على سجيته وطبيعته التى زودته بها دفعة الحياة . فالرجل الفاضل فى رأيه ليس من يكبح جماح نفسه ليحصل على تقدير المجتمع ، بل الرجل الذى يعمل الخير بطبعه .

ويلاحظ الدارس لشو أن أعماله الأدبية تقع فى ثلاث مراحل متميزة . أولها رواياته ومسرحياته التى كتبها قبل أن ينصرم القرن التاسع عشر ، والفترة الوسطى التى تشمل العشرين سنة الأولى من القرن العشرين والتى تبدأ بالرجل « والسوبرمان » وتنتهى بأعظم مسرحياته « القديسة جون » ، ثم مسرحياته الأخيرة التى لم تكن الا فانتازيا ، سياسية زايلتها القوة الدرامية التى تميز مسرحياته السابقة .

أعماله الأدبية :

بدأ شو حياته الأدبية بكتابة خمس روايات لم يكتب لها النجاح اذ كان تكنيكها فجا أقحم فيها أفكاره الاشتراكية والأخلاقية دون اعتبار لحبكة الرواية ورسم شخوصها .

وحين بدأ الكتابة للمسرح سنة ١٨٩٢ رمى الى كشف عيوب الطبقة المتوسطة فى المجتمع الفيكتورى الرأسمالى حتى يجعل أفراد الطبقة المتوسطة « يقتنعون بالاثم » لانتمائهم الى هذه الطبقة وتمسكهم بمقوماتها . وفى كشفه لهذه العيوب لم يلق شو اللوم على الأفراد ، اذ كان يرى فى بؤس الانسانية « المجتمع ، وليس أى فرد ، هو شرير المسرحية » . وقد أخذ موضوعات مسرحياته الأولى . من المشاكل الحقيقية التى كانت موجودة وقت كتابتها . فمثلا أخذ مشكلة مساكن الفقراء المتداعية كموضوع لمسرحيته الأولى

« بيوت الأرامل » (١٨٩٢) وفى « مهنة مسز وارن » (١٨٩٤) ذهب الى أن النظام الرأسمالى هو السبب فى البغاء ، اذ أن الفتاة العاملة الجائعة التى لا تأخذ أجرا كافيا لأن يسد رمقها ليس لها اختيار فى أن تتخذ لنفسها مهنة مسز وارن . كذلك يكتشف شو الناموس الأخلاقى الذى يتمسك به البرجوازيون ليميزوا أنفسهم كطبقة ويميط اللثام عن افتعال تمسكهم بمقومات الاحترام ورياء الذين يتسترون وراءها . ونجد فى مسرحيات شو مواقف ملؤها السخرية بسخافات المثل التى يتمسك بها البرجوازيون . ففى « الأسلحة والانسان » (١٨١٤) يسخر من تمسك البرجوازيين بالعنجهية واعجابهم بالفروسية والشجاعة فى الحروب والرومانسية فى نظرة الرجل والمرأة أحدهما للآخر . وفى مواقف ضاحكة يتبين لأبطال المسرحية أن كل تلك المثل جوفاء لا تستقيم مع حقيقة طبائعهم وما فى نفوسهم .

وفى مسرحياته الأولى صور شو مفهومه للكفاءة فى شخصيتى نابليون ويوليوس قيصر . ويرجع شو عظمة نابليون الى تخلصه من المثل العليا التقليدية واتخاذه قيما أخلاقية عملية . وأخلاقيات قيصر عملية أيضا وتعتمد على التطبيق التلقائى للذكاء على مواقف معينة بدلا من التقيد بالقيم التقليدية . وعظمة قيصر تكمن فى قدرته على الحكم على السلوك موضوعيا ، فغيريته تمكنه من احترام الدوافع وراء سلوك الناس حتى اذا لم يكن هذا السلوك فى مصلحته .

وينظر شو الى الجنس فى مسرحياته المبكرة على أنه أولا وأخيرا مظهر من مظاهر دفعة الحياة . ويعبر فالنتين بطل مسرحية « من يدرى » [1] (١٨٩٧) عن رأى شو فى هذا الصدد حين يقول لجلوريا :

كما لو كانت الطبيعة ، بعد أن دعتنا نعيش لأنفسنا ونعمل ما نراه صوابا ومعقولا طوال هذه السنين ، ترفع فجأة يدها الكبيرة لتمسك بنا ـ نحن طفليها الصغيرين ـ من خلف رقبتينا لتستعملنا رغما عنا فى أغراضها وبطريقتها .

لذلك هاجم شو أخلاقيات الفكتوريين المتزمتة والشعور الطبقى الذى كان يحول بين التزاوج بين الطبقات المختلفة ، والاهتمام بمقومات الاحترام وحياء النساء المصطنع ، وكلها فى رأيه تعوق العلاقات الانسانية الحرة وتجعلها غير طبيعية . كذلك سخر من الرجال والنساء الغيورين الذين يعتقدون أن الجاذبية بين رجل وامرأة يمكن أن تستمر الى الأبد بعد أن تستنفد دفعة الحياة أغراضها منها . ففى مسرحية « المغازل » [2] (١٨٩٣) يبين كيف أن من المستحيل لامرأة غيور أن تتزوج من رجل تقدمى . واذ يفقد هذا الرجل احترامه للنساء ولا ينظر اليهن كمساويات له يصبح غير أهل ليتزوج من امرأة عاقلة تعرف حقوقها . واذا تركنا الجنس جانبا فان الحياة الزوجية يمكن أن تستمر بالتفاهم والاحترام المتبادل بين الزوجين . وهذه هى الفكرة (الثيمة) الأساسية فى « كنديدا (١٨٩٥) . فكانديدا تهيىء لزوجها القس جيمس موريل بيتا سعيدا لأنها تحترم آراءه حتى لو كانت مخالفة لآرائها . فبالرغم من أنها لا توافق على كثير من آرائه فى قرارة نفسها اذ أنها لا تبدى عدم

---

(١) You Never Can Tell

(٢) The Philanderer

موافقتها حتى لا تفقده ثقته بنفسه • لذلك فهى تؤنب الشاعر الشاب يوجين مارشبانكس لأنه يحاول أن يكشف موريل لنفسه • وبرغم محاولتها حماية زوجها وتهيئة البيت السعيد له ، فهى تحس فى قرارة نفسها أن عامل الحب فى علاقتها بزوجها له وزنه • فهى لا تتمسك به وتفضله على الشاعر الشاب الذى تعجب بآرائه التقدمية الا لأنها تحبه• فهى تقول له :

آه يا جيمس ، انك لا تفهمنى • أتتكلم عن ثقتك فى طيبتى وعفافى ! انى لأعطيهما ليوجين المسكين بنفس راضية كما لو أعطيت وشاحى لسائل يموت من البرد اذا لم يكن هناك شىء آخر يربطنى بك • ضع ثقتك فى حبى لك يا جيمس : لأنه اذا ذهب فلن أهتم بعظاتك •

ومسرحياته « السارة » الأربعة « الأسلحة والانسان و « كنديدا » و « رجل الأقدار » التى يصور فيها نابليون و « من يدرى » مسرحيات كوميدية بالمعنى التقليدى تعتمد أساسا على السخرية من الأوضاع الاجتماعية فى مواقف ضاحكة تغلف النقد اللاذع بطبقة شهية من المرح والحيوية •

أما مسرحياته الثلاث للمتطهرين (١) ! فيلبس فيها مسوح الجد ويتخذ من الميلودراما وسيلة لنقل آرائه فى المثل العليا التى درج الناس على التمسك بها • والواقع أن الميلودراما السائدة فى عصره كانت تمجد تلك المثل العليا ، لذلك اختار الميلودراما ليسخر من الميلودراما ، وبالتالى ليبين أن ما تمجده يستحق السخرية لا التمجيد • ففى « تلميذ الشيطان » (١٨٩٧) مثلا يقارن شو بين مسز دوجيون المتدينة وابنها رتشارد المارق الذى يعتبره كل أهل القرية تلميذا للشيطان • وفى كثير من المواقف يبين شو النقص فى أخلاق المرأة المتدينة أما رتشارد فيبين الخير المتأصل فيه اذا ما جد الجد • فحين يدهم الجنود البريطانيون ابان حرب التحرير الأمريكية بيت القس أندرسون ليقبضوا عليه ويشنقوه ليجعلوا منه عبرة تخيف أهل القرية ، يظنون أن رتشارد الذى كان وحده مع زوجة القس فى البيت هو بغيتهم فيقبضوا عليه • هنا يجد رتشارد نفسه فى موقف عليه فيه أن يختار بين التضحية بنفسه أو أن يقول الحقيقة فيبحث الجنود عن أندرسون الحقيقى • وبدون تفكير وبدافع من طبيعته الخيرة الدفينة يسلم نفسه للجنود • ويرفض شو أن يكون الدافع لتضحية بطله هو حب يائس لزوجة القس كما يذهب كتاب الميلودراما فى مثل هذه المواقف • وفى نهاية حوار طويل بين رتشارد وزوجة القس يقول لها :

ان ما عملته أمس ، عملته وأنا واع بما أعمل ، ولم أكن حينذاك مهتما بزوجك أو بك نصف اهتمامى بنفسى • لم يكن لى دافع أو هدف •• لقد نشأت وأنا متمسك بما تمليه على طبيعتى ، ولن أغير من نفسى سواء تعرضت لحبل المشنقة أم لم أتعرض• كنت سأعمل نفس الشىء من أجل أى رجل آخر فى المدينة أو زوجة أى رجل آخر •

وفى « قيصر وكليوباترا » (١٨٩٨) يقارن شو بين قيصر وعدد من الشخوص الذين ليس لهم سموه الخلقى مثل كليوباترا التى تتحد فيها

(١) Three Plays for Puritans

عواطفها وأهواؤها ، وبريتانوس الانجليزى التقليدى الذى يتمسك بالمظاهر ليضفى على سلوكه مظهر الوقار ، وروفيو الذى يتصرف على سجيته فيقتل من يخشاه دون اعطاء مبرر اخلاقى ، اذ أن من طبعه أن يقتل « كما يقتل الكلب القط ، بالغريزة » • لذلك لا يلومه قيصر حين يقتل فاتاتيتا Fatateeta • وصيفة كليوباترا لأنه يعترف أنه قتلها لأنه يخشى بطشها •

ولكن جرعة الميلودراما تزداد فى « تحول كابتن براسبوند » (١٨٩٩) حين يحاول شو أن يصور فيها فى شخص «ليدى سيسيلى واينفليت» انسانا فاضلا على غرار رتشارد دوجيون وقيصر ولكن هذه المسرحية أضعف من المسرحيتين الأخريين فى نفس المجموعة •

وعندما تبلورت أفكار شو فى بداية القرن العشرين ، أخذ فى الدفاع عما اعتبره فلسفة منهجية تدخل فى نطاق نظرية « دفعة الحياة » أو « التطور الخلاق » فيما بعد • فكان شو يعتقد أن العالم خضم هائل يختلط فيه الخير والشر فى محاولة من دفعة الحياة لكى تطوّر الانسان ، وهى محاولة بطيئة يكتنفها كثير من المحاولة والخطأ • وقد حدا هذا بشو الى أن يرى أبعادا أخرى للمشكلات التى يناقشها فى مسرحياته ، فمثلا لم يعد الفرق بين الاشتراكى والرأسمالى واضحا وضوح الأبيض من الأسود • ثم أن المجتمعات ليست كلها من النضج بحيث تتقبل الاشتراكية • وحتى الامبريالية قد تكون فى بعض مظاهرها ذات فائدة لبعض المجتمعات • وبهذه الروح يعالج شو المشكلة الأيرلندية فى « جزيرة جون بول الأخرى » (١٩٠٤) ويعرض لرأسمالى متنور فى « ماجور باربارا » (١٩٠٥) وفى المسرحيتين يبين أن رأسماليا عمليا له احساس بالصالح العام قد يخفف من غلواء مساوىء الرأسمالية • واحساس أندرو أندرشافت ، بطل مسرحية « ماجور باربارا » بالصالح العام يتبين فى تنظيمه لبريفيل سانت أندروز ، حيث أقام بجوار مصانعه مستعمرة للعمال يقدم لهم فيها كل الخدمات الصحية والاجتماعية • ويسرح شو الصراع بين أندر شافت وابنته باربارا الضابطة فى جيش الخلاص ، التى تؤمن بالاحسان كوسيلة لتخليص النفوس • وفى رأى أندرشافت أن جيش الخلاص يؤكد بؤس الفقراء الذين لا يجذبهم الى الجيش خلاص نفوسهم بل الخبز والعسل الأسود الذى يتبلغون به • ثم أن الأموال التى تنفق منها الجمعيات الخيرية تأتى من التبرعات التى يدفعها الأغنياء تكفيرا عن خطاياهم • وفى ضائقة مالية يضطر الجيش فى المسرحية أن يقبل نقودا من صانع أسلحة ومنتج للويسكى ، وهى الأشياء التى يحاربها الجيش بكل ما أوتى من قوة •

ويصور شو رأسماليين ضيقى الأفق وأنانيين، بعكس أندر شافت ، مثل هكتور مالون الكبير فى « الرجل والسوبرمان » (١٩٠٣) ومانجان فى « منزل القلوب المحطمة » (١٩١٦) • ومع ذلك فالرجل العاقل يعترف بوجود أمثال مالون ومانجان ، ولا يلقى كل اللوم على الرجعيين: فهم نتاج ظروف اجتماعية لا يد لهم فيها • ثم أنهم يعملون لمصلحة الطبقة التى ينتمون اليها ، ويدافعون عن عقائدهم • وعلى ذلك ، فتصرف الرومان مع الشهداء المسيحيين فى « أندروكليز والأسد » (١٩١٢) والمحققين مع القديسة جون له ما يبرره • يقول شو ان حرية ارادة الفرد

لا تأتى « بانفجارات مستقلة لما يراه الفرد حقا ، بل بتغيرات جذرية فى المجتمع والنظم التى تعوق ارادة الفرد و « القديسة جون » (١٩٢٣) تصور التناقض بين اضطرار الساسة أن يتقيدوا بضرورة القضاء على الثائرين ، والأثر المعوق لذلك على تطور الانسان .

ولكن بمرور الأيام ، وخاصة بعد أن صدمه اندلاع الحرب العالمية الأولى ، يفقد شو ثقته تماما فى السياسيين التقليديين ، ويعقد الأمل على القائد السوبرمان من طراز لم يأت بعد . وقد صور هذا الطراز من القادة فى شخصية الملك ماجنس فى عربة « التفاح » (١٩٢٩) وبرولا فى « الساذج فى الجزر غير المتوقعة » [1] (١٩٣٤) ويسخر من الساسة غير الأكفاء فى مسرحيات كثيرة متأخرة نذكر منها على سبيل المثال « على الصخور » (١٩٣٣) و « جنيف » (١٩٣٨) .

وقد تأثرت نظرة شو الى الجنس بايمانه بأن دفعة الحياة تدفع الانسان الى التطور نحو السوبرمان ، وأن وسيلة دفعة الحياة لتحقيق هذا الغرض على الوراثة . فالمرأة فى رأيه وسيط دفعة الحياة لتحقيق أغراضها ، وبذلك فكل ما تعمله فى سبيل اجتذاب الرجل الذى توجهها اليه دفعة الحياة له ما يبرره . ففى مسرحية « الرجل والسوبرمان » تطارد آن وايتفيلد جون تانر حتى يستسلم لنداء دفعة الحياة ويقبل الزواج منها . وفى «الزواج» (١٩٠٨) و «الارتباط الخاطىء» [2] (١٩١٠) يناقش مناقشة مباشرة قوانين الزواج وتربية الأطفال . ويقول فى مقدمة «الزواج» ان قوانين الزواج وأخلاقيات الجنس يجب أن تعترف بالحق المطلق لممارسة الجنس بدلا من أن تصمه كالقديس بولس أو كالنظرة الرومانسية بأنه فى حد ذاته خطيئة . ومع ذلك لا يوصى شو بأن يطلق الناس لشهواتهم العنان ، بل ان اطلاق الجنس بالصورة التى ينادى بها لن يتأتى الا فى مجتمع يبلغ به الرقى حدا يجعل ممارسة الجنس تنحصر فى نطاق تحقيق غرض دفعة الحياة . والصراع فى معظم مسرحياته يأتى من هذا التفاوت بين ما يجب أن يكون وبين الموجود الذى ليس من مصلحة الفرد أو الجماعة أن يثوروا عليه ويحطموه .

ويعتقد شو أن كثيرا من الافتعال فى العلاقات الجنسية يأتى من الاعتماد المادى للمرأة على الرجل ، خصوصا فى الطبقة المتوسطة . ففى «بيجماليون» (١٩١٢) تنتقل اليزا بعد أن دربها هيجنز على النطق السليم والسلوك القويم من الطبقة الدنيا الى الطبقة المتوسطة . واذ تشعر بضرورة أن تتزوج تحاول أن تجتذب هيجنز ليتزوج منها لكنها تفشل . وفى نهاية المسرحية تكتسب اليزا قوة حين تكتشف أنه يمكنها أن تكسب عيشها مستقلة عن هيجنز .

وبالرغم من ازدياد احساس شو بتفاهة الانسان ، فان تفاؤله جعله يتخيل أن الانسان سيتطور حتى يعيش فى المستقبل فى مجتمع مثالى يعرف فيه كل رجل وامرأة دوره فى الحياة . انهم يعيشون بشدة بمعنى أنهم لا يأبهون لمصالحهم الشخصية وسعادتهم ويكرسون أنفسهم للعمل على تحقيق ارادتهم الفردية التى ما هى الا جزء لا يتجزأ من ارادة دفعة الحياة . والى أن

---

(١) The Simpleton in the Unexpected Isles

(٢) Misalliance

يصل الانسان الى هذه الدرجة من السمو يعتمد المجتمع فى تطوره على مجهودات القديسين الذى يضعون الغيرية فوق الذاتية • ومع ذلك فمشكلة الانسانية فى رأى شو أن المجتمع غير مستعد لتقبل هؤلاء القديسين فيحاربهم ويضطهدهم • ولكن شو لا يلقى اللوم كله على المجتمع ، لأنه يجب أن يحافظ على ترابطه وأن يوقف خطر هؤلاء الذين يزرعون الشك فى العقائد والتقاليد المتعارف عليها • والصراع الشديد بين الأفراد السامين والمجتمع هو السبب فيما يقاسيه كثيرون من شخوص شو من أمثال باربارا أندرشافت ، وكابتن شوتاوفر فى « بيت القلوب المحطمة » والملك ماجنس ولافينيا بطلة « أندر وكلير والأسد » والقديسة جون •

ويعتقد شو أن القديسين يجب أن تنبع قداستهم تلقائيا من نفوسهم • وقد يختار البعض طريق القداسة ، بل أحيانا الاستشهاد ، دون أن تكون لهم سمات القديسين • ويعرض شو نماذج لهؤلاء فى مسرحية « أندر وكلير والأسد » ، فسبنتو يضحى بنفسه بغية كسب شخصى فى الآخرة ، وهو دخول الجنة بعد حياة ملؤها الانحراف والبغى ، وأندر وكلير يعتنق المسيحية لأنها تناسب طبيعته ، وفروفيوس المحارب القوى ليس له مزاج القديسين • ولافينيا هى القديسة الوحيدة الحقيقية لأنها لا تشك فى أنها لا تموت لغرض شخصى ، بل فى سبيل شىء أعظم من الأحلام والأقاصيص الدينية •

وأمل شو فى المستقبل جعل خياله يصور يوتوبيات مستقبلة يعيش فيها الناس فى مجتمعات من القديسين • ويفرق دون جوان فى « الرجل والسوبرمان » بين الجنة والجحيم ، فيقول ان الجنة هى الحالة التى يستغرق فيها الانسان فى البحث عن الحقائق الخالدة ، والجحيم هو أن يجرى الانسان وراء سراب السعادة الشخصية دون اهتمام بحقائق وجوده •

العودة الى متوشالح :

ويضمن شو تصوره لتطور الجنس البشرى وما يتخيله من يوتوبيات قد يعيش فيها البشر فى المستقبل فى مسرحية « العودة الى متوشالح » (١٩٢١) ذات الخمسة أجزاء • وحين بدأ شو فى كتابة هذه المسرحية حوالى سنة ١٩٢٠ كانت آراؤه فى النشوء والتطور قد انتقلت من تأثير صمويل بتلر الى تأثير هنرى بيرجسون الفيلسوف الفرنسى صاحب نظرية التطور الخلاق • وقد يذهب البعض الى أن شو لم يستوعب جيدا آراء بيرجسون ، ولكن الثابت أن شو افتتن باصطلاح « التطور الخلاق » وبدأ يستعمله بكثرة منذ ذلك الحين • والفرق الأساسى بين نظرية دفعة الحياة كما بينها شو فى « الرجل السوبرمان » ونظرية التطور الخلاق التى ضمنها « العودة الى متوشالح » انه طبقا للأولى يعتمد التطور على تراكم العادات المكتسبة المتوارثة من جيل الى جيل• أما فى الثانية فيرفض شو فكرة أن العادات المكتسبة تورث • فوسيلة التطور ليست التزاوج والوراثة بل « الرغبة ، التخيل ، الارادة والخلق » • ومن ثم يقول شو ان طول العمر يجعل الانسان أكثر نضجا وأكثر علما بجوهر وغرض الحياة ، وبذلك يسهم بدوره فى التطور •

وفى ضوء هذه النظرية يعيد شو كتابة سفر التكوين فى الجزء الأول من المسرحية « فى البدء ». فأبطال هذا الجزء هم آدم وحواء والحية وقابيل •

يبين شو فى هذا الجزء كيف بدأ الانسان فى طريقه المرسوم ليحقق ارادة ليليث ، ام اخليقه ، ثم كيف انحرف عن الطريق الصحيح • ان اخيه التى تعلمت اسرار الحياة والموت من ليليث تلقن حواء الدور الذى تلعبه ارادة الفرد فى تحسين واستمرار البشرية • تقول لها اخيه ان سر الخلق هو « ان تتخيلى ما ترغبينه ، تريدى ما تتخيلينه ، واخيرا تخلقى ما تريدينه »• وبذلك تكتشف حواء دورها الابدى فى اعطاء الحياة لتعمير الارض • اما ادم ، الذى لا يريد أن يبقى الى الابد ، اذ انه غير مقتنع بانه اسمى من خلقت ليليث ، يريد أن « يتغير ، أن يتحسن ، ان يبدأ من جديد المرة تلو المرة »• وحتى يساعدا الحياة فى تطورها يريد ادم الموت وتريد حواء الحمل والولادة • ولكن حين يجد ادم أنه لن يعيش أبدا ، وأنه سيكون له أبناء يساعدونه ، تنمو فى نفسه اول العادات السيئة التى تتكاثر مع تطور البشرية : فيجد آدم مثلا لذة فى التسويف ويغار على زوجه • وليتخلص من اعباء المسئولية ، فيتمنى مستقبلا ثابتا غير متطور يتمتع فيه بضمان التأكد حتى لو قضى ذلك على الأمل • وبدون أمل أو أية محاولة للابتكار ينساق ادم فى تيار حياة مملة رتيبة ضحلة • ويجمل آدم وهمه الخاطىء فى قوله « ان كل ما أخشى عمله شر »• أما الحية فعلى العكس تؤمن بالتطور وتقول « أخشى التأكد ، كما تخشى أنت عدم التأكد ، واذا قيدت المستقبل ، أقيد ارادتى ، واذا قيدت ارادتى ، أخنق الخلق »•

وفى الفصل الثانى يأتى قابيل بعد أن قتل أخاه هابيل • وقابيل، مثل أبيه ، يخشى الحقيقة• ولكن لأن له مزاج المحارب والقائد ، يحتقر قبول أبيه لتلك الحياة الرتيبة • ويريد شو أن يؤكد هنا أن قابيل ، الذى اتخذ مقاييسا أدبية ومادية للسلوك، قد أبعد الانسان عن الغرض الاساسى من خلقه ، وهو مساعدة دفعة الحياة فى تحقيق غرضها التطورى • والقوة التى يتشدق بها قابيل تخلق الكراهية ، والخوف ، وتؤدى به الى اكتشاف الاقطاع والعبودية :

> لدى خطة • لماذا لا نستأنس الرجال والنساء حتى يعملوا لنا ؟ لماذا لا نربيهم منذ طفولتهم ولا يعرفون لهم مصيرا اخر ، حتى يعتقدوا أننا آلهة وانهم ما خلقوا الا ليجعلوا الحياة رائعة لنا ؟

وبذلك يضمن قابيل القوة لنفسه على حساب الارادات الفردية للآخرين • ولكنه فى الواقع مخدوع فى هذه القوة • فهو يخاطر بحياته فى الحرب والصيد ليرضى المتطفلين عليه ، ويمثلهم فى المسرحية زوجته لوا التى تضن بحبها ما لم يغطِّ جسدها بالفراء الثمين للحيوانات التى يقتنصها • وتعبر حواء عن الوهم الذى يعيش فيه قابيل بقولها :

> لا يمكنك أن تحب لوا حتى تطلى وجهها بالمساحيق ، ولا أن تحس الدفء الطبيعى لجسدها حتى تلصق عليه فرو السنجاب •

وفى الجزء الثانى انجيل «الأخوان بارنباس» ، يسخر شو من الساسة ويلقى عليهم مسئولية اندلاع الحرب العالمية الأولى • يرسم شو شخصيتى جويس برج ولوبين اللذين استوحاهما من شخصيتى لويد جورج ولورد آسكويث ، السياسيين البريطانيين الشهيرين • ويرى شو أن الداروينية الجديدة هى سبب عدم كفاية هؤلاء الساسة لأنها تؤمن بالتطور المعتمد على الصدفة •

واذ يترك الساسة الأمور تسير وفق الصدفة دون أن يخططوا للتطور الخلاق ، ينزلق العالم فى أتون حرب أفسدت أغراض دفعة الحياة • ثم أن الساسة يهتمون بأمورهم ومصالح أحزابهم ، ويتمثل ذلك فى لهفة بيرج ولوبين على انتصار الحزب فى الانتخابات حتى يبقيا فى الحكم • وفى رأى شو أن الانسان العادى مهما علا شأنه، طفل غرير لن يرقى الا اذا طال عمره الى ثلاثمائة عام ، فيصبح قادرا بعد المائة الأولى على أن يسمو عن الصغائر والماديات ويهتم بالأغراض الأزلية التى خلقته من أجلها دفعة الحياة • ويكتشف عالما الأحياء ، الأخوان بارنباس ، سر اطالة الحياة فيستدعيهما بيرج ليعرض عليهما الاشتراك فى حزبه لأن اكتشافهما سيجذب الناخبين اليه • وحين تندلع نار الحرب يتبادل السياسيان الاتهامات والمهاترات التى تفضح سطحيتهما ولا مسئوليتهما واذ يفقد لويد جورج ابنه فى الحرب يضع شو هذه الملاحظة الساخرة على لسان هاسلام خطيب ابنة بارنباس : بقى لوبين ووالدك احياء بعد الحرب ولكن ابنيهما قتلا فيها •••

فى رأيى أن أسوأ ما فى عجزهما السياسى أنهما تسببا فى قتل ابنيهما •

وفى الجزءين الثالث والرابع يبرز شو النقص الخلقى فى تكوين الانسان بمقارنته بمخلوقات أسمى منه • فيتصور شو أنه فى المستقبل سيعيش على الأرض جنس جديد من طويلى العمر يعيش الفرد منهم ثلاثمائة سنة • وفى الجزء الثالث ، « يحدث الشىء » ، يعيش عدد قليل من طويلى العمر فى دنيا يسيطر عليها قصيرو العمر• يظهر فى المجتمع الانجليزى معمران يزيد عمر كل منهما عن مائتين وخمسين عاما هما رئيس أساقفة يورك ، وهو نفسه القس هاسلام خطيب ابنة بارنباس فى الجزء الثانى ، ومسز لوتسترنج ، وهى مدبرة بيته • وقد قصد شو الى اختيار شخصيتين عاديتين من شخوص الجزء الثانى ليصبحا أول طويلى العمر فى انجلترا ، ليؤكد استمرار الأحداث وبالتالى استمرار عملية التطور الخلاق فى الجنس البشرى ؟ ثم أيضا ليؤكد أنه حتى أبسط الناس ، والناس بالنسبة لشو الاشتراكى سواسية ، يكتسبون سموا خلقيا ووعيا عميقا اذا طال بهم العمر • ثم يصور شو مجموعة من قصيرى العمر ليقارنهم بطويلى العمر ؟ وهؤلاء أيضا يتفاوتون فى درجة سموهم المحدودة • فهناك مثلا بيرج لوبين ، رئيس الجمهورية ، رجل سطحى لا يهتم الا بالبقاء فى الحكم وبمغازلة الوزيرات من كل جنس ولون• وبيرج لوبين فريسة لخداع النفس ، لا يرى الأمور على حقيقتها • وبالرمز يبين شو ذلك اذ يجعل بيرج لوبين يرى الناس ، حتى النساء اللاتى يغازلهن ، خلال جهاز شبه تلفزيونى ، يعكس صورهم وهم عن بعد • وتعبر مسز لوتسترنج عن رأيها فى أمثال بيرج لوبين فتقول: عندما أذكر النعم التى تتساقط عليكم ، وأقارنها بالفقر والضعة والقلق وحرقة القلب ، والغطرسة والطغيان التى كانت النصيب اليومى للبشرية ، حين كنت أتعلم أن أقاسى بدلا من أن أحيا ! عندما أرى كيف تأخذون الأمور بلا مبالاة ! كيف تتعاركون على الأوراق الذابلة فى أحواض الورود التى بين أيديكم ! كيف تتأففون من عملكم فتتركونه للصينيين والزنجيات ان لم يكن جذابا ومسليا ! أسائل نفسى اذا كانت ثلاثمائة

عام من التأمل والخبرة كافية لتنقذكم يابنى البشر من أن تسيء فهم القوة التى خلقتكم ووضعتكم موضع التجربة بمخلوقات أكثر سموا .

أما بارنباس ، وزير المالية ، فبالرغم من أنه أرقى من بيرج لوبين كانسان ، الا أنه من ذلك الطراز من الناس الذين يتمسكون بحرفية ما يعتقدون فيه . ان العالم بالنسبة لشو دائم الحركة والتغير والتطور ، حتى الحقائق العلمية ليست ثابتة ، وكثيرا ما يسخر شو من جمود عقلية العلماء ومن ينهجون المنهج العلمى لذلك يسخر شو من تصميم بارنباس على مقاضاة رئيس الاساقفة لأنه عاش أكثر من العمر المقرر للانسان العادى وبذلك يسلب الدولة معاشا لاحق له فيه . وحين يقال له ان طويلى العمر يعملون وبذلك لا يأخذون مالا دون مقابل يقول :

> لا أعرف شيئا عن عملهم وانتاجهم. ليس هذا مما يهم وزارتى . ان ما يهمنى هو ما أتوقعه من مدى لحياتهم . وأعرف تماما أنه ليس لانسان حقا فى أن يستمر فى الحياة ويأخذ من أموال الدولة حين يجب أن يكون ميتا .

ان ما يهم بارنباس هو الحقائق التى يعرفها ولا يهتم بالمنطق . ولعل هذه المحادثة بينه وبين كونفوشيوس ، الحكيم الصينى والسكرتير العام للدولة ، تبين جمود عقليته وعدم تكيفه مع ما يستجد من ظروف .

بارنباس : ليس لدى ما أقوله عن منطق الصينى . ولكن ماذا عن الحقائق التى أعرفها ؟

كونفوشيوس : اذا كان بين الحقائق التى تعرفها حالة رجل عاش ٢٨٣ سنة ، فأنصحك أن تمضى بضعة أسابيع على شاطىء البحر .

أما كونفوشيوس فأرقى من الآخرين ، ويمثل العقلانية والقيم الواقعية . ونلاحظ أن شو يضع على لسان كونفوشيوس آراءه فى السياسة والاقتصاد . فهو يسخر من الديمقراطية البريطانية والرأسمالية والملكية ونظام الحكم ، فيقول مثلا :

> لم يمكنكم أن تصيبوا نجاحا فى الحكم قبل أن يضطركم أخيرا الموت والخراب الذى سببته الفوضى الى أن تعترفوا بحقيقتين أزليتين : أولهما أن الحكم ضرورة قصوى للمدنية ، وأنكم لا يمكن أن تحتفظوا بالمدنية لمجرد تغلبكم على جيرانكم كما كنتم تدعون، أو قطع رأس ملككم اذا حدث أن كان اسكتلنديا منطقيا وحاول أن يأخذ عمله مأخذ الجد . وثانيهما أن الحكم فن لا تسمح طبيعتكم أن يكون لكم فيه باع .

ولكن شو كان من أتباع المدرسة الحيوية التى لا تؤمن بأن العقلانية هى المحرك الصحيح لسلوك الانسان . وفى ذلك يقل كونفوشيوس عن طويلى العمر . فبينما يقول عن مسألة ما ، لا يمكن تفسيرها : ليست منطقية ولذلك لا أصدقها ، نجد أن رئيس أساقفة يورك ينصحه قائلا : « تعود على الاستغراق فى التأمل وستأتى لك الأفكار العظيمة » .

ويمتاز المعمران ، رئيس الاساقفة ومسز لوتسترنج ، بسموهما عن الماديات واستغراقهما فى التأمل وأخذ الدنيا مأخذ الجد .

أما فى الجزء الرابع ، « مأساة السيد المسن » فيتخيل شو انجلترا وقد سكنها قوم من طويلى

العمر • وليبين تفاهة الانسان العادى وتعلقه بالصغائر ، يتصور أن بعثة من بغداد ، عاصمة الامبراطورية البريطانية ، تأتى لتستشير عراف الجزيرة • وتتكون البعثة من نابليون ، امبراطور تورانيا ، ورئيس وزراء بريطانيا وزوجه وابنته وحميه ، السيد المسن • ويمثل السيد المسن الرجل البرجوازى المتمسك بالمثل السائدة ، والذى يعتقد باخلاص فى النواميس التى درج عليها • أما رئيس الوزراء فهو سياسى لا يحترم القيم ، بل هو على غرار بيرج ولوبين لا يهمه الا نجاح حزبه فى الانتخابات والاحتفاظ بالحكم • أما نابليون فهو كقابيل يهتم بالقوة التى يمكن أن يحصل عليها بعبقريته العسكرية ، وبأن يلقى فى روع الناس أنه أسمى منهم جميعا ، ويقارن شو بين هؤلاء وبين قوم يبلغ عمر أفرادهم ثلاثمائة عام • هؤلاء القوم كما يصورهم شو قد بلغوا المستوى الذى يتطلبه شو فى بنى الانسان ، والذى ضمنه كل كتاباته السابقة • فقد قضوا على الاقطاع والملكية الفردية• فحين يسأل الرجل المسن احدى طويلات العمر اذا كانت صاحبة الأرض ، ترد عليه قائلة :

من الأساطير المتوارثة فى هذه البقاع أنه كان يعيش هنا حيوان بهذا الاسم • كان يطارد ويضرب بالرصاص فى عصور البربرية حتى انقرض تماما • وقضوا أيضا على فكرة القومية• تقول زو :

انه من المضحك أن يسمى الناس أيرلنديين لأنهم يعيشون فى أيرلندة ! بالقياس يمكن أن نسمى الناس هوائيين لأنهم يعيشون فى الهواء • لا بد وأنهم كالناس الآخرين تماما •

وقد تخلص هؤلاء القوم من الأوهام وواجهوا الحياة بواقعية تامة لدرجة انهم خلصوا لغتهم من الاستعارات وكل المحسنات البلاغية • كذلك تخلصوا من القيود التى تعتبرها مدينة القرن العشرين من مقوماتها • فهم مثلا لا يعرفون الزواج أو العائلة • فبدلا من الارتباط الى نهاية العمر بالزواج، يسمحون للنساء المتمتعات بغريزة أمومة قوية أن يحملن عدة مرات • فزو ، وهى شابة ما زالت فى المائة سنة الأولى من عمرها ، تخصصت فى الأطفال • لقد كان أول انجاب لها ناجحا فأسند اليها كبار القوم هذه المهمة • وخلاف التمييز الجنسى الضرورى لهذا الغرض ليس هناك أى تمييز بين الجنسين عند هؤلاء القوم • فعراف الجزيرة قد يكون ذكرا أو أنثى. كذلك تلاشت ألفاظ أب وعائلة • فالأم ترعى أطفالها حتى يبلغوا العاشرة ثم تتركهم وشأنهم • وفى ذلك تقول زو ، « بعد الثامنة أو التاسعة لا يصبح للأطفال أية جاذبية الا لأنفسهم » • وهذا لا يعنى أن شو كان ينادى بالفوضوية ، ولكنه كان يعتقد أن فى مجتمع السوبرمان سيحس كل فرد بمسئوليته تجاه الحياة فلن يتعين عليه أن يتقيد بما يقيد العاديين من البشر • والفرق الجوهرى بين قصيرى العمر وطوال العمر هو أن طول العمر يجعل الانسان جادا فى سلوكه ومقدرا لمسئوليته • تقول زو :

ليس عدد السنين التى عشناها ، بل عدد السنين التى أمامنا أن نحياها هى التى تجعلنا حذرين وشاعرين بالمسئولية ومصممين أن نكشف الحقيقة عن كل شىء. فيم يهمكم اذا كان أى شىء حقيقى أم لا ؟ ان لحمكم كالحشيش: تنمون كالزهرة وتذوون فى طفولتكم

الثانية • ان أية أكذوبة يمكن أن تبقى بطول عمرك ولكنها لن تبقى بطول عمرى. اذا عرفت أنى سأموت بعد عشرين عاما فلن تكون لى مصلحة فى أن أعلم نفسى : لن أهتم بشىء الا أن أستمتع بحياتى القصيرة •

أما طوال العمر فقد أثبتت الايام أنهم أصدق وأكثر حكمة من قصيرى العمر • لذلك فهم يعلمون الصغار بالقدوة لأن الأيام تثبت أنهم على حق تقول زو فى ذلك :

عليك أن تعترف أنى تعلمت ممن هم فى القرن الثالث من عمرهم • رأيت أعمالهم وحييت حسب تقاليدهم • وكمل الصغار ثرت عليهم ، ولجوعهم لأضواء جديدة وأفكار جديدة ، استمعوا الى وشجعونى على الثورة • ولكن أثبتت الأيام فشل طرائقى ونجاح طرائقهم ، وقالوا لى السبب • ليست لهم قوة على الا هذه القوة: وهم يرفضون أية قوة أخرى ، والنتيجة أنه ليس لقوتهم حدود الا الحدود التى يضعونها بأنفسهم • انكم أطفال يحكمكم أطفال• يقعون فى أخطاء كثيرة ويتصرفون كالأولاد الأشقياء حتى أنكم دائمو الثورة عليهم • واذ لا يمكنهم أن يقنعوكم أنهم على صواب ، لا يمكنهم أن يحكموكم الا بضربكم وسجنكم وتعذيبكم وقتلكم اذا لم تطيعوهم ولم تكن لكم القوة الكافية لقتلهم أو تعذيبهم •

والفرق بين قصيرى العمر وطويلى العمر كبير لدرجة أنه اذا تحدث أحد قصيرى العمر مع أحد طويلى العمر يحس بتفاهته فيموت من اليأس •

ويبدأ الفصل الثانى بمناقشة بين نابليون وعرافة الجزيرة• يفاخر نابليون بعبقريته الحربية ويسأل كيف يحتفظ بها حتى الموت • وتجيبه العرافه أنه يستحق أن يموت فى الحال اذا كان هذا هو كل هدفه فى الحياة • ثم يدخل رئيس الوزراء ومرافقوه الى المعبد لاستشارة العرافة ، وبعد خطبة بليغة جوفاء يسألها : « هل نحل البرلمان فى أغسطس أم نؤجله للربيع القادم ؟ » ويرفض رئيس الوزراء أن يصدق العرافة حين تقول له أنها لا تتنبأ بالغيب لأنه يعرف أن رئيس وزراء سابقا استشارها منذ خمس عشرة سنة وطمأنته على مستقبله السياسى ، وفعلا فاز فى الانتخابات لاستغلاله ما قالته له العرافة وحين تنطق العرافة لا تقول الا « عد الى طنك أيها المغفل البائس ! » ويتبين أن رئيس الوزراء السابق قد غرر بالناخبين وكذب عليهم ولفق ما قالته العرافة وفق هواه ، اذ أن زو تخبرهم أن ما قالته العرافة اليوم هو نفس الكلمات التى قالتها لرئيس الوزراء منذ خمس عشر سنة • ويقرر رئيس الوزراء أن يغرر بدوره بالناخبين البريطانيين بأن يقول لهم ان العرافة قالت له نفس الكلمات التى قالتها لسلفه منذ خمس عشرة سنة • والرجل المسن الذى تعلم الكثير من مناقشاته مع زو يجد نفسه فى مأزق ازاء قرار زوج ابنته فيقول للعرافة :

لقد ذهبوا ليكذبوا بشأن اجابتك• لايمكننى أن أذهب معهم • لا يمكننى أن أحيا بين بين أناس لا شىء حقيقى عندهم • بعد أن عشت هنا ، لست قادرا على ذلك • أستحلفك أن تسمحى لى بأن أبقى هنا •

ولكن بقاءه فى الجزيرة ، حيث يتعرض لمقابلة طويلى العمر ، قد يتسبب فى موته من اليأس . وحين تذكره العرافة بذلك يقول : « ان معنى الحياة ، لا معنى الموت هو الذى يجعل عبوديتى نسبية بالنسبة لى » . وتسمح له العرافة بالبقاء ، حين تلتقى عيناهما يموت الرجل المسن فى الحال .

وفى الجزء الخامس ، « للمدى الذى يصل اليه الفكر » ، يصور شو يوتوبيا ، أو عالما مثاليا ، فى سنة ٣١٩٢٠ . فى هذا المجتمع لا يولد الأطفال ، بل يخرجون من بيضة وهم فى نمو أبناء السادسة عشرة الحاليين . ولا يقول شو كيف تتكون البيضة انما يكتفى بأن يتخيل أن الانسان قد تغلب على ضرورة الجنس لايجاد أفراد جدد . والجنس فى هذا المجتمع نوع من اللهو لا ينغمس فيه الا الأطفال دون الرابعة . وهذا اللهو ليس متعة جسدية ولكنه نزعات عاطفية أو رومانسية كتلك التى تتسم بها المجتمعات الغير ناضجة . فالفتاة التى خرجت لتوها من البيضة تحكمها غرائزها . ولكنها تتميز عن الرجال والنساء العاديين بانها لا تمنعها أى قيم خلقية مفروضة من تحقيق ارادتها ، وبذلك لا تلجأ للكذب والنفاق الذى يتسمون به . ويمثل ستريفون الرومانسى الذى يعتقد أن الجاذبية الجنسية لها طبيعة الاستمرار ، فيحزن حين تكبر فتاته عن أربع سنوات وتفقد اهتمامهما بالجنس تماما . أما اكريزيا فتمثل الجماليين الذين يريدون الجمال والفن لذاتهما . وهى لا تأبه بالواقع ، بل تهرب منه الى عالم من الخيال ملؤه الفن والجمال والحب . واذ ينتقد شو فى هذا الاطار الرومانسيين والجماليين فانه أيضا يسخر من السلوكيين الذين يعتقدون أن سلوك الانسان ما هو الا رد فعل ميكانيكى لمؤثرات معينة .

ففى المسرحية يصنع بيجماليون دميتين آليتين تتصرفان وتتكلمان بالطريقة التى يدعى السلوكيين أن الانسان يسلك بها . يقول الذكر من الدميتين :

انا جزء من نظام كونى . الارادة الحرة وهم . انا أبناء الفعل ورد الفعل . انا غير متغيرين ، لا نقاوم ، لا مسئولون ومسيرون ... ان فعال الملك مسببة وبذلك هى حتمية ، ومقدرة من أول العالم الى آخره ، وكذلك فعال الملكة .

وبما أن الدميتين ليستا لهما ارادة فردية ، بل هما ردود أفعال لمؤثرات خارجية ، فهما لا يحسان بأن شيء خارج نفسيهما . انهما أنانيان لدرجة أنه حين يقرر العتيق The Ancient أن يقتلهما لتسببهما فى مقتل بيجماليون ، يحاول كل منهما أن يلصق التهمة بالآخر . ولأنهما لا يحيان بشدة ، فانهما يهربان الى دنيا خيالية من الأكاذيب والمجد الزائف .

وحين يكبر أطفال هذا المجتمع عن الرابعة يبدأون فى التأمل والتعلم حتى يكبروا ويصبحوا من العتيقين الذين يحيون حياة متقشفة ، دون ملابس ، دون أكل ، دون جنس ، بل أيضا دون كلام . ويعبر أحد العتيقين الذكور عن النشوة التى يجدها فى الفكر والتأمل بأن يقول لستريفون الثائر ، « أيها الطفل ، ان لحظة واحدة من نشوة الحياة التى نحياها لتدفع بك الى الموت » .

وهكذا يصل شو الى قمة التصوف حين يتخيل انسانه المثالى وقد سيطر سيطرة تامة على شهوات الجسد وأسقطها من حسابه . بل يذهب الى أبعد من ذلك حين يتخيل الدنيا وقد سكنتها دوامات [1]

(١) Vortexes

من الفكر تتأمل الحياة وتستقرىء تقدمها نحو الألوهية • حينئذ ستتغلب الحياة على المادة التى يعتبرها شو العدو المستعبد لدفعة الحياة • وقد استمد شو هذه الفكرة مما ذهب اليه بيرجسون من أن الحياة والمادة فى صراع دائم • لذلك يرى شو أن أمام الحياة شوطا طويلا قبل أن تسيطر على المادة تماما • والى ذلك الحين ، سيأتى أناس من طراز السوبرمان يستنبطون الوسائل التى تحقق بها الحياة انتصارها • ويشير شو الى أن التطور لا نهاية له ، وقد يصل الى مراحل لم يصل اليها فكره ، أما الصورة التى قدمها فى الجزء الخامس فهى نهاية ما يصل اليه فكره وخياله ولذلك يسميه « للمدى الذى يصل اليه الفكر » •

البناء الدرامى للمسرحية :

كتب شو « العودة الى متوشالح » وهو فى قمة قدرته الدرامية ، اذ هى الفترة التى كتب فيها أروع أعماله مثل « بيت القلوب المحطمة » و « القديسة جون » • ولكن لعل لبسه مسوح الفيلسوف ومحاولته وضع كل أفكاره وفلسفته بين ضفتى الكتاب قد حرم المسرحية من القوة الدرامية التى تتمتع بها مسرحياته الأخرى فى هذه الفترة• ولا يعنى هذا أن شو أغفل ضرورة وضع أفكاره فى قالب درامى يشد انتباه النظارة • ففى كل من الأجزاء الخمسة صورتان متضادتان ، احداهما للحياة كما يراها شو اذا خلص الانسان نفسه مما فرضته عليه التقاليد وكرس حياته لتطوير الحياة نحو العلم بكل شىء والقدرة على كل شىء ، والأخرى للعالم كما هو ، الخاضع لنظريات السلوكيين والدراونيين الجدد ، والذى يترك أموره يسيرها عامل الصدفة الذى يعتمد عليه « الاختيار الطبيعى » • والصراع بين الصورتين هو الذى يولد الصراع الدرامى فى كل من الأجزاء • ففى الجزء الأول يشتد الصراع الدرامى فى الفصل الثانى حين يأتى قايين ويحاول أن يفرض مثله على أبيه وأمه • وبالرغم من أن الفكرة التى يعالجها هذا الجزء فلسفية ، فان شو نجح فى تقديمها بوضوح وبساطة أسهمتا فى حيوية البناء الدرامى• ولكن شو يعرض آراءه فى مناقشته مباشرة، وليس عن طريق الأحداث كما يفعل فى مسرحياته الجيدة • ولا شك أن هذا الجزء ممتع للعقل ومثير للتفكير ، الا انه لا يحدث تأثيرا دراميا فى نفس المشاهد لأن الأحداث ليست متطورة ، فالمسرحية عبارة عن موقف واحد ثابت يعرض فيه كل من الشخوص آراءه واتجاهاته •

والجزء الثانى ساخر يكشف فيه تفاهة السياسيين الذين تسببوا فى نشوب الحرب العالمية • وكان من الممكن أن يكون لهذا الجزء جاذبية ورشاقة « المسرحيات السارة » ، الا أن المرارة التى يسخر بها من بيرج ولوبين تخرج بالمسرحية من اطار الكوميديا المرحة التى تعتمد فى تأثيرها الدرامى على موضوعية الكاتب وتعاطفه مع كل شخوصه • ومع ذلك فالمسرحية مليئة بالمواقف الضاحكة ، خصوصا المواقف التى يحاول فيها بيرج ولوبين استغلال اكتشاف الأخوين بارنباس •

وفى الجزء الثالث يستخدم شو التكنيك الذى يستعمله دائما اذا ما أراد ابراز سمو نفر من الناس • فلابراز سمو رئيس أساقفة يورك ومسز لوتسترنج ، يقارنهما ببيرج لوبين وبارنباس وكونفوشيوس • ولأن جل هم شو هو ابراز سمو طويلى العمر ، يرسم قصيرى العمر ببساطة

لا يخدمون الا غرض هذه المقارنة • فلا يعطى شو أبا من قصيرى العمر فردية تجعل منه انسانا من لحم ودم • ثم أن شو لا يظهر سمو رئيس أساقفة يورك ومسز لوتسترنج من خلال الأحداث ، بل يكتفى بذكر ذلك فى الحوار الذى يجريه على ألسنة شخوصه •

والجزء الرابع هو أحسن الأجزاء دراميا • ولعل ذلك يرجع الى أن شو نفسه كان يحس بنفس احساس السيد المسن فكتب هذا الجزء باحساس عميق جعل موقف الرجل المسن يدعو للرثاء وتعاطف النظارة • وشخصية الرجل المسن هى أكثر شخوص الخماسية تعقدا وحيوية • فهو برجوازى لحمة وسدى باحساسه الطبقى وتمسكه بالتقاليد ، ولكنه مخلص فى عقيدته يحاول جاهدا أن يسلك سلوكا سليما حسب رؤياه للسلوك السليم • وتزداد التوتر الدرامية عند نهاية المسرحية حين يتبلور الصراع فى نفس الرجل المسن الذى عليه أن يختار بين الموت لو عاش بين طويلى العمر وحياة أقرب الى الموت بين المنافقين من بنى قومه •

والجزء الخامس نتاج خيال خصب • ويبرز شو فيه سمو العتيقين بمقارنتهم بالأطفال دون الرابعة الذين يتعلقون بالصغائر ويعتقدون فى المفاهيم الخاطئة كالرومانسية والجمالية والداروينية والسلوكية • ويرى شو أن هؤلاء الأطفال صنو لمعاصريه من رجال ونساء • ولكن شو يعتمد على المناقشة فى الحوار دون أن يظهر عظمة العتيقين من خلال الأحداث • وبالرغم من أن الجزء زاخر بالمواقف الكوميدية الجذابة الا أن أجزاءه لا ينتظمها خط درامى حيوى متكامل •

وقد رمى شو الى أن يضع فى خماسيته كل أفكاره وكل نظرياته • والمسرحية على هذا الأساس مثير للفكر ولكن ينقصها التكامل الدرامى فالصراع الدرامى لا يوجد الا فى بعض مواقف الجزء الأول والرابع • والبناء الدرامى مفكك لأن شو يوجه جل اهتمامه للأفكار ، وربما لمصير الانسانية جمعاء دون أن يعطى اهتماما ولو ضئيلا لمصائر الأفراد من شخوصه • فالأشخاص فى كل أجزاء الخماسية ، عدا الرجل المسن ، أنماط رسمت لتخدم غرض شو فى عرض آرائه ومناقشتها •

ومع ذلك فالخماسية عمل كبير يستحق الدراسة كمثل حى لمسرح الأفكار الذى أرسى شو دعائمه، والذى لم يكن ليخرج الى حيز الوجود الا بقلم رجل له خصوبة خيال شو وقدرته الذهنية •